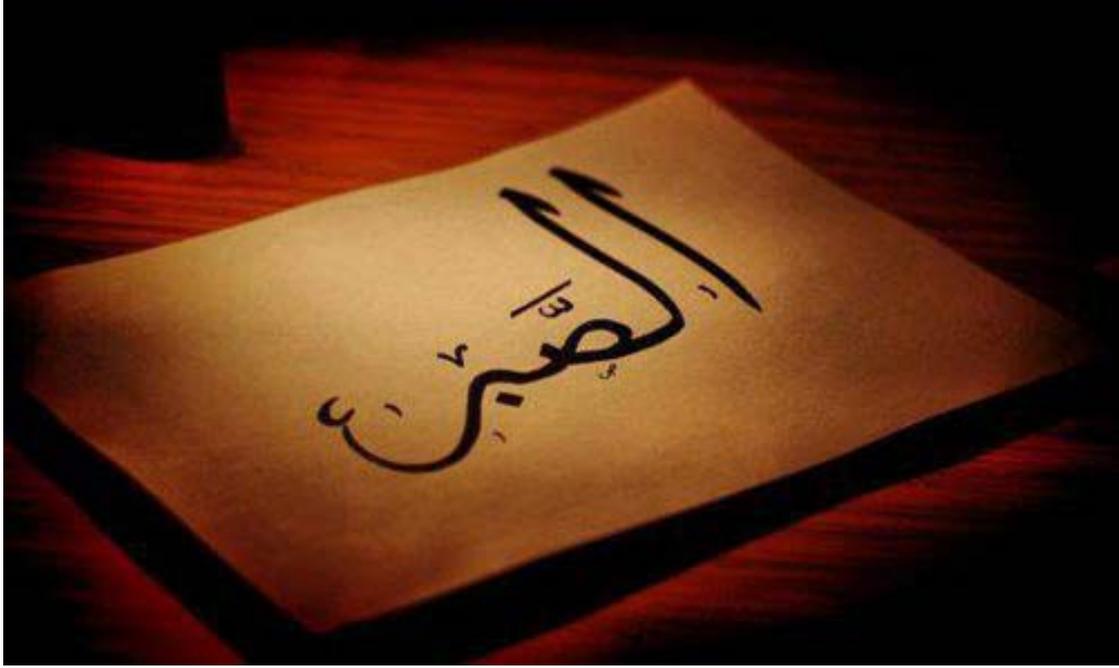


المعنى اللغوي للصَّبْر



قال السالكون التَّصَبُّرُ هو حَمْلُ النفس على المكاره وتجرُّعِ المرارة. يعني إن لم يكن المرءُ مالكَ الصَّبْرِ فينبغي أن يجتهدَ ويُكَلِّفَ نفسه الصَّبْرَ. والصَّبْرُ هو ترك الشكوى إلى غير الله. وقال سهل: الصَّبْرُ انتظارُ الفرج من الله وهو أفضل الخدمة وأعلاها. وقال غيره: الصَّبْرُ أن تصبرَ في الصَّبْرِ معناه أن لا تطالع فيه الفرج. يعني: أن لا يرى الخروج من المَحَنِ والشَّدَائِدِ. وقالوا: الصبر: هو أن العبد إذا أصابه البلاء لا يتأوَّه. والرُّضَا: هو أن العبد إذا أصابه البلاء لا يصير متبرِّماً. ما أعطى الله ما أخذ فمن أنت في البين. ويقول بعضهم: إن أهل الصبر على ثلاث درجات: الأولى: عدم الشكوى؛ وهذه درجة التائبين. الثانية: الرُّضَا بالمقدور وهذه درجة الزَّهَّاد. الثالثة: المحبَّة لكلِّ ما يفعله المولى بعبده وهذه درجة الصَّادِقِينَ. وهذا التقسيم للصَّبْرِ باعتبار حلول المصائب البلاء. وأمَّا حكم الصبر فاعلم بأنَّه ينقسم إلى فرض ونفلٍ ومكروه وحرام. فالصَّبْرُ عن المحذور فرض وهو عن المكروهات نفل، والصَّبْرُ على ما يصيبه من ألمٍ لترك المحذور كما لو قصد شهوةً محرَّمةً وقد بلغ درجة الهَيْجَانِ، فيكظم شهوته ويصبر. وكذلك الصَّبْرُ على ما يصيبه من مصائب في أهله. وأمَّا الصَّبْرُ المكروه فهو صبره على ما كره فعله في الشرع. وعليه فالمعيار هو الشرع وهو المحكُّ الحقيقي للصبر. كذا في مجمع السلوك. وقيل الصَّبْرُ هو ترك الشكوى من ألمِ البَلَاءِ إلى غير الله لا إلى الله، لأنَّ الله تعالى أثنى على أيوب (ع) بالصبر بقوله: (إِنَّ نَاسًا وَّجَدُوا نَاسًا يُصَابِرُونَ) (ص/ 44)، مع

دعائه في دفع الضُّرِّ عنه بقوله: (وَأَيُّ يُّوبَ إِذْ نَادَى رَبَّهُ أَنْ نِيَّ مَسَّ ذُنُوبِي الضُّرُّ وَأَنْزَلَتْ أَمْحُومٌ الرِّاحِمِينَ) (الأنبياء / 83)، فعلمنا أن العبد إذا دعا □ تعالى في كشف الضُّرِّ عنه لا يقدرُ في صبره، ولئلا يكونَ كالمقاومةِ مع □ تعالى ودعوى التحمُّلِ بمشاقه. قال □ تعالى: (وَلَقَدْ أَخَذَ نَاهُمُ بِالْعَذَابِ فَمَا اسْتَكَانُوا لِلرَّبِّ هَمُّ وَمَا يَتَضَرَّعُونَ) (المؤمنون / 86)، فإنَّ الرضاء بالقضاء لا يقدرُ فيه الشكوى إلى □ ولا إلى غيره وإنما يقدرُ بالرضا في المقضي، ونحن ما خوطبنا بالرضا بالمقضي، والضُّرُّ هو المقضي به وهو مقتضى عين العبد سواءً رَضِيَ به أو لم يرضَ، كما قال (ص): "من وجد خيراً فليحمد □، ومن وجد غير ذلك فلا يلومنَّ إلا نفسه". كذا في الجرجاني. وفي التفسير الكبير في تفسير قوله تعالى: (وَبَشِّرِ الصَّابِرِينَ) (البقرة / 155)، الصَّابِرُ ضربان: أحدهما بَدَنِي لتحمُّلِ المَشَاقِّ بالبدن والثبات عليه وهو إما بالعقل كتعاطي الأعمال الشَّاقة أو بالاحتمال كالصَّابِرِ على الضَّرْبِ الشديد والألم العظيم. وثانيهما هو الصَّابِرُ النفساني وهو منعُ النفس عن مقتضيات الشَّهوة ومشتَهيات الطَّبْعِ. ثمَّ هذا الضَّرْبُ إن كان صَدِيرًا عن شهوة البَطْنِ والفَرَجِ يُسَمَّى عِفَّةً، وإن كان على احتمالٍ مكروهٍ الذي يدلُّ عليه الصَّابِرُ، فإنَّ كان في مُصِيبَةٍ اقتصر عليه اسم الصَّابِرِ ويضادُّه حالة تُسَمَّى الجَزَعِ والهَلَاكِ وهو إطلاقُ داعي الهوى في رفع الصَّوْتِ وضَرْبِ الخَدِّ وشَقِّ الجيوب وغيرها. وإن كان في حال الغنى يُسَمَّى ضبط النفس وتضادُّه حالة تُسَمَّى البَطَرِ، وإن كان في حَرَبٍ ومُقاتلة يُسَمَّى شجاعة ويضادُّه الجُبْنُ. وإن كان في كَطَمِ الغَيْظِ والغضب يسمَّى حِلْمًا ويضادُّه البرق. وإن كان في نائبةٍ من نوائب الزمان مُضْجِرَةً يسمَّى سَعَةً الصَّادِرِ ويضادُّه الضَّجَرُ والنَّدَمُ وضيقُ النفس. وإن كان في إخفاء كلام يُسَمَّى كتمان النفس ويسمَّى صاحبه كَتومًا. وإن كان في فَضول العيش يُسَمَّى زُهْدًا ويضادُّه الحرُّصُ. وإن كان على قَدَرٍ يسيرٍ من المال يسمَّى القناعة ويضادُّه الشَّرُّه. وقد جمع □ أقسام ذلك وسمَّى الكلَّ صَبْرًا فقال: (الصَّابِرِينَ فِي الْبِدَائِ سَاءِ وَالصَّابِرِينَ) (البقرة / 177)، أي الفقر، وحين البأسِ أي المحاربة. قال القفال: ليس الصَّابِرُ هو حملُ النَّفْسِ على تلك إظهار الجَزَعِ، فإذا كَطَمَ الحُزْنَ وكَفَّ النَّفْسَ عن إبراز آثاره كان صاحبه صَابِرًا وإنَّ ظهر دمعُ عَيْنٍ أو تغيَّرَ لَوْنُ. وقال عليه السلام: "الصَّابِرُ عند الصَّدْمَةِ الأولى"، وهو كذلك لأنَّ مَنْ ظهر منه في الابتداء ما لا يُعَدُّ معه من الصابرين ثمَّ ظهر فذلك يسمَّى سَلَوًا، وهو مما لا يُدَّ منه. قال الحَسَنُ: لو كُتِلَ النَّاسُ إِدَامَةَ الجَزَعِ لم يقدرُوا عليه. فائدة: قال الغزالي: الصَّابِرُ من خواص الإنسان ولا يُتصوَّرُ في البهائم لأنَّها سَلَطَتْ عليهم الشَّهَوَاتُ

وليس لهم عقل يعارضها، وكذا لا يتصور في الملائكة لأزهم جرّ دوا للشوّق إلى الحضرة الربوبية والابتهاج بدرجة القرب ولم يُسلط عليهم شهوة صارفة عنها حتى يحتاج إلى مصادمة ما يصرفها عن حضرة الجلال بجهد آخر. وأمّا الإنسان فإنّه خلق في الابتداء ناقصاً مثل البهيمة ثمّ يظهر فيه شهوة اللّعب ثمّ شهوة النكاح إذا بلغ، ففيه شهوة تدعوه إلى طلب اللذات العاجلة والإعراض عن الدار الآخرة، وعقلٌ يدعوه إلى الإعراض عنها وطلب اللذات الروحانية الباقية. فإذا عرف العارف أنّ الاشتغال عنها يمنع عن الوصول إلى اللذات صادقةً ومانعة لداعية الشهوة من العمل فيُسمّى ذلك الصّدّ والمنع صبراً، انتهى ما في التفسير الكبير. ►